المحافظة على التراث (البناء التاشفيني نموذجا)

الدكتور : جيلالي صاري
جامعة الجزائر

ملخص البحث

إن هذا البحث لا ينحصر في التنقيب عن الماضي وتسليط الأضواء على التراث المعماري الأصيل وإن كان لذلك دور هام في تنمية الثقافة العامة وتدعيم المواطنة وتزكيتها، بل الغاية المنشودة كانت ولا تزال تحضير مشروع قابل للإنجاز خدمة لمتطلبات الساعة، أي الظروف الراهنة المتمثلة في فقدان الذاكرة الجماعية، وبالتالي القطيعة الكاملة للماضي، للثقافة العامة والثوابت الوطنية... لا لأسباب موضوعية مثل نهب الناهبين وتدمير المحتلين لتراثنا المجيد، بل أيضا وأكثر مما مضى في الظروف الراهنة، ظروف التوسع العمراني العشوائي المتواصل على حساب بقايا التراث والأطلال عبر التراب الوطني.[1]

وعليه قد اخترنا أحسن مثال للتطرق لهذه الإشكالية المعقدة والمصيرية في نفس الوقت بعدما خصصنا لها الوقت الطويل لجمع المعلومات عبر مراكز الأرشيف بفرنسا، من أجل إبراز مكانة ودقة زخرفة المعلم الذي كان يعد من التحف النادرة وربّما الفريدة من نوعها ألا وهي : **المدرسة التاشفينية بمدينة تلمسان**

إن إعادة بناء مثل هذا المعلم في الموقع الذي حددناه بدقة ليكون الشاهد الحي لمجدنا وأمجاد كل الأجيال بل يساهم مساهمة فعالة في التوعية وبالتالي في المحافظة على بقايا التاريخ عامة، والتراث المعماري خاصة، ذلك التراث الذي تضرر ولا يزال يتضرر أكثر فأكثر. التاشفينية تحفة نادرة من تحف التراث المعماري الأصيل بالجزائر بل تحفة فريدة من نوعها عبر المغرب العربي والأندلس، خاصة وأنها توسطت معالم أخرى أصيلة داخل إحدى العواصم التي أرست أسس المغرب الأوسط وأثبتت تواجده طويلا، ألا وهي

1 - ابن مريم : البستان في ذكر الأوليات وعلماء تلمسان - الجزائر 1908م

عاصمة دولة بني زيان، أي تلمسان.

إن وجود هذا المعلم وفي مثل هذه المدينة الرمزية بالدرجة الأولى كان محكوما عليه بالزوال الحتمي بعد الاحتلال الفرنسي وتعميم الاستطانة إن عاجلا أو آجلا... ولكن هل من المعقول أن يؤدي هذا المصير الذي تم في ظروف موضوعية ومعينة إلى فقدان الذاكرة الجماعية؟ إلى النسيان الكامل والمؤبد بينما هناك أمثلة كثيرة في بعض الدول لإعادة بناء معالمها التي دمرت تماما ؟

ألم يأت الأوان للاسترشاد بهذه المسالك الحميدة خاصة وأن التقنيات أصبحت في متناولنا ؟

وهل أيضا في حالة تحقيق المشروع أي بعد إعادة استملاك المعلم من طرف الذاكرة الجماعية – روح جديد وملائم للمحافظة على بقايا التراث والمهدد أكثر مما مضى بالضمار والزوال بسبب التحضير العشوائي وتعميم الذهنيات المتخلفة ؟

ولتوضيح ذلك يعالج هذا العرض ما يلي :

- إبراز المشروع وإشكاليته
- التاشفينية تحفة التراث المعماري الإسلامي
- التاشفينية ضحية الاستطانة ... وعاقبة فقدان الذاكرة الجماعية

إبراز المشروع والإشكالية :

عادة في الأوساط والمجتمعات الواعية والأكثر غيرة على مجدها وتراثها في شتى المجالات تتقبل بكل اهتمام وعناية المشاريع القيمة وخاصة **كل ما يمجد التاريخ عبر معالمه الخالدة وشواهده الثابتة**، وكل ما يوظفه، وبالتالي كل ما يلم الشمل وينمي الثقافة وقيمتها العالمية، وبالفعل كثيرة هي المساعي المتواصلة خلال العقود الماضية من أجل تحقيق هذه الأهداف النبيلة في البلدان المتقدمة.

وأما بالنسبة للأوساط والشعوب الأخرى، أي التي كثيرا ما أصبحت مجردة ومحرومة من بقايا تراثها وشواهدها وذلك لأسباب موضوعية كثيرة وغالبا معينة مثل الضياع، والنهب، والتدمير والتحطيم المباشر وغير المباشر. فالأمر يختلف كل الاختلاف، خاصة في الظروف الراهنة، تلك الظروف التي ما فتئت أن تصيب الذاكرة مباشرة، الذاكرة الجماعية، وتلك هي المخلفات التي تعمّمت عبر البلدان التي عنت طويلا **استعمار الاستطانة** كما هو شأن **الجزائر** بالأمس، و**فلسطين** اليوم.

وبالفعل فإن الاستطانة بالجزائر قد استهدفت، زيادة عن استغلال ثرواتها الطبيعية والاقتصادية، **طمس ثقافتها وتراثها** بما فيها **اللغة ورموز الابتكار والفن عبر المعالم والشواهد التي جسدت الحضارة الإسلامية عبر أهم المدن**، و مصير أهم مدينة عتيقة بالقطر الجزائري، وهي تلمسان، أي عاصمة الدولة التي وضعت أسس المغرب الأوسط. **والدليل قاطع** أن احتلال المدينة وحدها قد أسفر عن تحطيم جزء كبير من المباني الرسمية بما فيها مقر دولة بني زيان ألا وهو المشور، مع عدد من المساجد والمدارس، والزوايا، ومقر قيادة الأمير عبد القادر، وجزء من القلع والأسوار...وحتى «القيصرية» أي السوق المخصص لإقامة التجار الأوربيين.

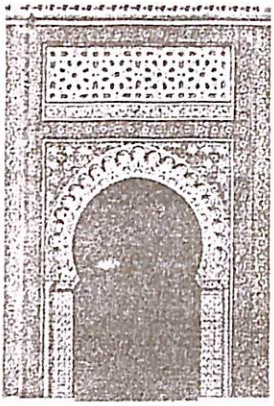

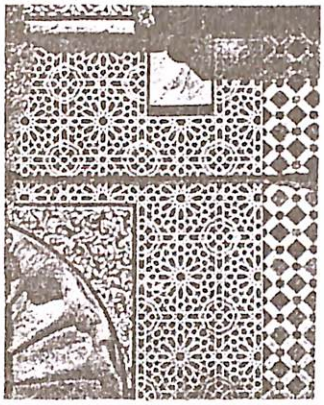

1 - نموذج لبراعة الزخارف التاشفينية

وأما ما يتعلق بالمعلم الفريد من نوعه عبر كل المغرب الأوسط والذي قد نافس المعالم الأخرى في باقي المغرب العربي والأندلس، ألا وهي المدرسة التاشفينية فقد تأجل تحطيمها زمنا طويلا إلى أن توفرت أهم الشروط وحتى أن يتحمل السكان المصير في الصمت والخضوع ...وحتى أن **يختفي شيئا فشيئا ثم نهائيا ذلك المعلم من الذاكرة الجماعية**.... ذلك هو الهدف المنشود من التحطيم بحيث أنه لا يلاحظ حاليا أي أثر للمعلم وهذا بعد أربعة عقود من استرجاع السيادة الوطنية. وهكذا قد أصبح حتى اسم «التاشفينية» منعدما تماما لا يقرأ على أي شارع ولا على أي مدرسة أو على مبنى من المباني الرسمية بحيث حتى اسم إحدى ضواحي تلمسان يعود إلى اسم الملك وليس للمعلم المعماري وعليه يضل هذا الأخير مجهولا كل الجهل، وبالتالي يبقى **كل الشعب الجزائري محروما من تاريخه وتراثه وثقافته الأصلية**.

هذا وإذا ما أضفنا إلى مثل هذه المأساة انعدام ما يثبت حتى موقع المعلم، وضياع الوثائق وحتى ما يمكن أن يلتفت إليه من أطلال نادرة، فحينئذ نصطدم بواقع لا مثيل له،

واقع مؤلم ولا يتألم به إلا القليل، إلا الذي ظل يفكر ويتأسف عواقب التلف والطمس، خاصة ظيلة **العقد الأخير** الذي اشتدت فيه عمليات المس بالقيم والهوية وحتى باقي ما يثبت الماضي المجيد.

وعليه كيف يمكن التغلب على هذا كله من أجل التوصل إلى الاستجابة لمتطلبات ما يسترجع الشواهد والرموز للحضارة الإسلامية الأصيلة ؟ لإثبات تواجد ذلك المعلم المعماري أو لا عبر وثائق وتحاليل تكون المرجع لتحضير المشروع، ثم انجازه بعد تجنيد كل الطاقات الحية هنا وهناك.

هكذا تتجلى لنا مراحل البحث ومنهجيته وقد تجسدت المرحلة الأولى والأكثر صعوبة ومشقة في مواصلة البحث والتنقيب عبر مراكز الوثائق الفرنسية المتواجدة في كل من مدينة إيكس إن بروفانس وباريس وحتى في متحف Cluny بباريس انطلاقا من دراسة المستشرق المشهور والمختص بالفن الإسلامي الغربي G. Marçais[2] وهذه المرحلة قد استغرقت عدة سنوات من أجل التوصل إلى جمع المعطيات الدقيقة للتصور الحقيقي للمعلم وقد اقتصرنا في هذا العرض على تقديم خلاصة وجيزة.

أما المرحلة الثانية والحالية تتمثل خلال السنتين الماضيتين في عرض وتفسير وتحليل المشروع على كل من الأوساط المثقفة وعلى بعض المصالح العمومية المعنية بالأمر وذلك من أجل تحضير الجو المساعد وحتى تتوفر الشروط لتجنيد الطاقات وبالتالي الشروع في بداية تحقيق مثل هذا المشروع الرائد والضروري لإثبات الشواهد المتينة لتراثنا المجيد.

مثل هذه المرحلة الحاسمة للغاية إلّا وتتطلب أيضا مجهودات متواصلة لإقناع الجميع وبالأخص ذوي الكفاءات والمتطلعين للنهضة الثقافية بعد الركود والانكماش في الظروف الراهنة، بعد عقد كامل من العنف والتدمير والطمس.

هذا وكان لابد من التفكير طويلا في تحديد موقع إعادة بناء المعلم إذا ما أخذنا بعين الاعتبار، الأهداف المرجوة ليستطيع أن يقوم المعلم بدوره الحضاري، ولذا أوضحنا ذلك في العرض المقترح وأكّدنا عليه.

1- التاشفينية : تحفة التراث المعماري الإسلامي

«إنها لأجمل المعالم بالمغرب العربي» و «إنها لأروع معلم بالعاصمة»

ذلك ما صرّح به من كان يدرك كل الإدراك وبكل موضوعية قيمة ومرتبة ذلك المعلم، خاصة وأن تصريح الاختصاصي وهو **جورج مرصي** قد تم اثناء تواجده بالعاصمة الزيانية

2 - أبو زكريا يحي بن خلدون : بغية الروض في ذكر الملوك من بني عبد الوادي (مع ترجمة بالفرنسية ل: A. Bel. - الجزائر 1904 - 13، جزأين).

(1236 - 1553 م)، وقد خصص لها وقتا طويلا أصدر فيه بحثا قيما سنة 1937 م أي بعدما قارن المعالم المختلفة بينها وأمْعنَ فيها طويلا.

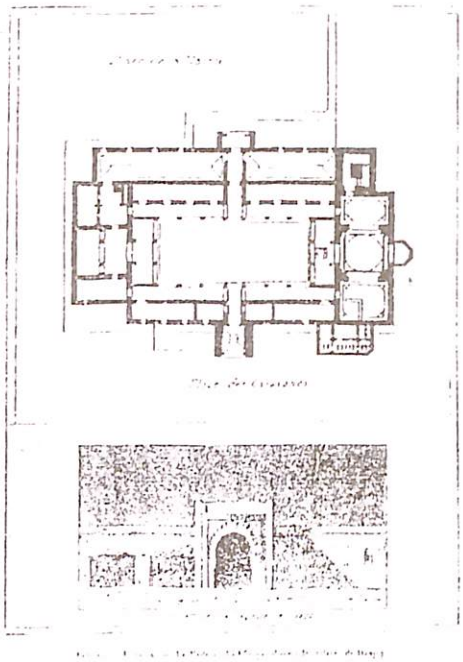

2 - التصميم العام للتاشفينية وإحدى بواباتها

وهكذا تتجلى لنا قيمة المعلم عبر العاصمة القديمة للمغرب الأوسط وكذا مكانته عبر المغرب العربي والأندلس، إذ هناك إشارات أخرى تؤكّد ذلك من جديد بحيث أضاف في نفس الملخص أن هذا المعلم : **يتمثل في نموذج مدرسة خاصة، فريد بالغرب الإسلامي، وإن كان يرتبط عبر بعض «الخطوط بنفس مجموعة البنايات التي شيّدت بالمغرب الأقصى بنفس الزمان»** (نفس المرجع ص 273).

فمثل هذه التفاصيل المفيدة جدا إذ تسلط الأضواء على أهمية المعلم ومقارنته بالمعالم الأخرى والمتواجدة بعاصمة الدولة المجاورة لها أي بمدينة فاس وحيث تعددت الدراسات بصددها (Terrasse 1927)، وعليه فإن المقارنة جاءت في محلها للتأكد كل التأكيد **مكانة التاشفينية**.

وانطلاقا من هذه المعطاة الأولى التي لا جدال فيها يتسنى لنا أن نضيف لها معلومات أخرى تتعلق بالبنية عامة والزخرفة خاصة، بعدما نحدد ظروف تشييدها. إن تشييد مثل

هذا المعلم كما هو الأمر عادة لا يتحقق إلا إذا توفرت شروط معينة والتي تعود بالدرجة الأولى إلى وظيفته قبل كل شيء، والوظيفة مرتبطة مباشرة بالبنية وحتى التسمية إذ أنها مدرسة في الأصل وغايتها **الإشعاع الروحي والعلمي في آن واحد** وبذلك تجمع بين **المسجد والمدرسة** كما يترجم ذلك عبر كل من الأقسام وهندسة المعلم.

وأما زمن تشييد المعلم، فله أكثر من دلالة إذ يوضح شروط هذا الإشعاع والتي لولا توفر ذلك لما شيد المعلم ولما بلغ ذلك الجمال والإتقان. وهكذا بناء التاشفينية يعود إلى الملك الزياني **أبو تاشفين** الأول (1318 – 1337م) وهو **الملك المتشبث بالعلوم والفنون** والذي أبا إلا أن يضيف إلى عاصمته معلما آخر ينافس المعالم السابقة، ولأن يجلب إليه العلماء الأجلاء مثل أبي موسى عمران المشدالي والذي كان من أكبر الفقهاء المالكيين في عصره.

وفي الواقع فقد سلك هذا الملك مسلك أسلافه، إذ أن أبا حمو موسى الأول (1308 – 1318م)، حينما بنى المدرسة القديمة، قد استدعى للتعليم فيها كلا من أبي زيد عبد الرحمان وأبي موسى عيسى، وقد أتيا من ميناء بريش القريب من مدينة شرشال الأصلية.

وعليه فإن المدرسة التاشفينية قد حظيت بعناية كبرى وكان لابد أن تنافس المعالم المجاورة لها بمدينة فاس، خاصة وأن الدولتين المجاورتين غربا في صراع سياسي حاد وبذلك كان لابد وأن تعزز سمعة وإشعاع الدولة الزيانية بمعلم رائع يبقى شامخا عبر العصور يجسد مجد الدولة ومن بناء المدرسة المجاورة لمسجد سيدي أبي مدين من طرف أبي حسن المريني سنة 1345م حينما استولى مؤقتا على مدينة تلمسان إلا محاولة لتحديد إشعاع التاشفينية ومكانتها[3].

وعلى كل فهذه المعطيات السياسية توضح وتؤكد جليا مكانة المعلم داخل وخارج الدولة الزيانية، أي داخل وخارج المغرب الأوسط في عصر معين فاصل بين الماضي الذي أرسى الحضارة الإسلامية والعصور المقبلة التي أنذرت بالانحطاط والجمود.

وهكذا سمحت الظروف والشروط لتشييد معلم رائع تخليدا لما توصلت إليه براعة وابتكار الفنانين والذين اقتدوا بالمشاعر الروحية للدين الحنيف، وكل هذا قد أكدت عليه الوثائق التي طالعها المختص بالفنون الإسلامية السابق الذكر، جورج مارصي (1927 – 1937م) وكما التمسنا ها نحن بدورنا خلال أبحاثنا المتواصلة منذ العقود الماضية.

3 - جميل عبد القادر الأكبر: عمارة الأرض في الإسلام، مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية، مؤسسة الرسالة للطباعة- بيروت 1997، الطبعة 3، ص 522

وأكثر ما يتجلى عبر الوثائق وبقايا المعلومات يلتمس في جمال الزخرفة وتلاؤمها مع المحيط بحيث أن جورج مارصي، أشار إلى صعوبة مقارنة الزخرفة بما يراعى بعيدا عن المعلم في باقي المغرب والأندلس. وبالفعل فقد أعطى هذا المؤرخ تفاصيل كثيرة عن براعة الزخرفة وجمالها الفاتن، وقد جاء في الخلاصة بعدما سلط الأضواء طويلا على مختلف الأجنحة للمعلم و هو يبدي **تأسفه الشديد لتحطيم مثل هذا المعلم الفتان :**

«إنها لزخرفة أنيقة للغاية قد اكتست المعلم كله والقليل الباقي بعد التدمير ليعبر كل التعبير عن «فكرة» تكاثر الزخرفة والتي يصعب العثور عليها في أنحاء أخرى ... ومثل هذه الأناقة «تبقى استثنائية» (نفس المصدر ص 276).

وأما بنية المعلم فهي لا تختلف عن باقي المدارس الأخرى والمتواجدة بالمغرب العربي وإن كان اتساعها أقل ما يشاهد بالشرق، والسبب راجع في ذلك إلى وحدة المذهب بالمغرب العربي كما أكد ذلك الخبير R. Hillenbrand (1986 V، 1145). وبالرغم من اقتراب هيكلها العام بما جرى بالمغرب الأقصى حيث تتكاثر البنايات إلا أنها تنفُر عنها، كما ألحّ على ذلك جورج مارصي (273 : 1937) بدوره وإن كانت تتضمن كلا من الصحن والأروقة والمصلى أي الأقسام المميزة للمدارس المجاورة لها بالمغرب الأقصى.

وعلى كل فإنه يلاحظ أن الرسم الذي يندرج في مستطيل مطول جدا يتمحور في محورين متعامدين، وللمبنى وجهتان وبوابتان في متوسط كل من الواجهتين (رسم 2) وأكبر بوابة تحتوي على شبه قسم متقدم للمبنى العام والمتواجد في الواجهة الغربية ؛ بينما البوابة الشرقية أقل حجما من البوابتين إلا وتشمل أروقة تؤدي كلها إلى الصحن كما أنها تربط أيضا البيوت المتوزعة على الأروقة. ويبدو أن وظيفة هذه البيوت هي زوالة الدرس، وقد كانت تقوم مقام النوم للطلبة أيضا حسب تحليل جورج مارصي (نفس المرجع ص 271).

هذا وبالإضافة إلى أقسام أخرى موزعة كلها عبر الصحن، فإن ما يميز هذا الأخير هو جمال بلاطه وفسيفسائه زيادة عن حوض من رخام في وسطه نافورة كان الماء يتدفق بها دون انقطاع وأشعة الشمس تلمع وكأنها خيوط من ذهب ذات ألوان مختلفة عبر ساعات من نهار.

ومن أهم أقسام المعلم يجدر ذكر المؤذنة المربعة المتواجدة في الزاوية الشرقية والتي تؤكد بدورها وظيفة الصلاة للتاشفينية وتلك هي القاعدة العامة والشاهدة في مثل هذه البنايات الرسمية.

وفي الأخير لابد من الإلحاح على ميزات هذا المعلم من حيث الأناقة، والزخرفة والانسجام. وكل هذا إلا وقد ساهم مساهمة فعالة في سمعته وروعته كما وضح ذلك الباحث والذي تعلق به واستطاع أن يقوم بتحاليل ومقاربات شتى عبر المغرب والمشرق، أي جورج مارصي عبر أبحاثه القيمة (1903، 1927، 1937).

2 – التاشفينية : ضحية الاستطانة . . .وعاقبة فقدان الذاكرة الجماعية

علاوة عن أناقته وزخرفته، وانسجام بنايته بالإضافة إلى مكانته التاريخية عبر التراب المغاربي فإنه لابد من التأكيد على موقعه داخل عاصمة بني زيان، خاصة وأن المعلم قد اتخذ **مكانا بارزا بين معالم أخرى** لا تقل أهمية سواء في الحياة اليومية أو في كل من الميدانين الروحي والثقافي الاجتماعي.

ونظرا إلى الاهتمام الذي أولاه لهذا المعلم الفاتن، فإن أبا تاشفين الأول قد فكر كثيرا في اختيار الموقع، وأراد أن تكون تحفته في **المكان الأكثر ملائمة والأكثر إيقاعا**، لا سيما وأن العاصمة تحتضن ذلك المسجد الذي أدى الدور الرئيسي في رسم المدينة الجديدة حينما تصورها وشرع في تحقيقها مؤسس الدولة المرابطة بن تاشفين (1060 – 1106) انطلاقا من بناء المسجد الجامع سنة 1082م[4].

وعليه كان لابد من اختيار مكان قريب من هذا الأخير وأن يصبح همزة وصل بينه وبين المشور، مقر الزيانية. ولذا فقد احتلّت التاشفينية قلب العاصمة، القلب الخافق الذي يلتفت إليه الجميع، المنارة التي تنير الجميع، المدرسة التي تفيد الجميع، القريب والبعيد، وكل من يبحث عن العلم والطاعة والاطمئنان.

هكذا أرادها مشيّدها وتلك هي الغاية التي خصص لها مجهوداته، ولأجل ذلك أراد أن تكون قريبة من قصره، وتبقى قريبة من المعلم الذي كان ولا يزال يؤدي دورا هاما في الحياة الدينية وبالتالي السياسية آنذاك.

وهكذا تتجلى بكل وضوح الأهمية القصوى خاصة وأن المدارس الأخرى لا تحتلّ مثل هذا المكان، فهي إما بعيدة عن قلب العاصمة كما هو الشأن بالنسبة للمدرسة القديمة السابقة الذكر، وإما منعزلة كما هو بالنسبة للمدرسة المجاورة لمسجد سيدي أبي مدين والتي زاولها العلامة ابن خلدون.

واهل مثل هذا الموقع الممتاز لم يكن من الأسباب التي أدت إلى . . . تحطيم المعلم من

4 - حاجيات ع.ح. : أبو حمو موسى الزياني: حياته وتراثه- الجزائر- الشركة الوطنية للطباعة والتوزيع 1979

طرف السلطات الفرنسية ولماذا يا ترى ؟ وفي أي تاريخ بالضبط ، وهي إبّان احتلال المدينة أم بعد فترة طويلة ؟ ولماذا هذا التردد بالتالي ؟ لم يتم التحطيم الكامل إلا بعد **أربعة عقود كاملة** من احتلال مدينة تلمسان ، وبعد **تراكم** الأطلال بالمدينة جراء الاحتلال من جهة ، وبعد التغيير الجذري لوجه المدينة من جهة أخرى . وهذا خلال بداية الاحتلال وبعدما أن **فقدت المدينة سلسلة من البنايات الروحية والثقافية ، من زوايا ، ومدارس قرآنية ،** خاصة وأن عدد هذه الأخيرة قد سجّلت انخفاضا محسوسا ، زيادة عن هجرة عدد لا بأس به من السكان طيلة العقود الأولى من الاحتلال .

هذا وقبل الشروع في تحطيم المعلم الفاتن وبعدما أصيب المسجد الجامع بأضرار وإن كان قد رُمّمَ ، فإن المسجد القريب منه وهو الآخر معلم رائع الهندسة المعمارية كما تؤكده المطبوعات الفرنسية نفسها. فقد دنسه الجيش المحتل إذ أصبح مركزا للخمر وأعلاف الحيوانات...مدة طويلة، ثم حول في الأخير إلى متحف لجمع بقايا ...التراث الإسلامي...وإلى يومنا هذا[5].

وأما القرار الحاسم والذي لا رجعة فيه حدث في سنة 1873م أي في تاريخ معين وفي مناسبة مساعدة للغاية للسلطات الحاكمة ، أي بعد إخماد ثورة 1871 – 1872م على المستوى الوطني ، وبعد انخفاض المستوى الثقافي لسكان مدينة تلمسان ، خاصة وأن النظام السياسي الجديد بفرنسا يختلف تماما عما سبق . فالجمهورية الثالثة التي أسست سنة 1871م معروفة بقمعها للثورة السابقة الذكر ، وهي التي واصلت التوسع الاستعماري عبر العالم ، كما أنها **عمّمت الاستطانة بالجزائر** والتي كانت تسعى **لطمس الحضارة الإسلامية** وبالأخص إحدى قلاعها مثل عاصمة دولة بني زيان ، وكان لابد من تدمير الجزء الأكبر من التراث بما فيه التاشفينية .

وبالفعل يمثل تدمير التاشفينية المرحلة **الأخيرة للهيمنة والطمس والقضاء على ما يرمز إلى الماضي المجيد** ، بل أكثر من ذلك وقبيل العملية الأخيرة للقضاء على نفس التاشفينية جاء في القرار المؤرخ يوم 10/12/1872م ما يلي :

«الرجاء تخصيص مبلغ 1500فرنك وذلك لجمع تلك الفسيفساء الرائعة الموجودة ببوابة المدرسة . . . والتي لابدأن تحطم من أجل توسيع شارع سان ميشال . . . وإنه لمن الأسف الشديد أن تضيع مثل هذه الثروة وألا تخصص لزخرفة إحدى صالات متاحفنا بفرنسا (نفس المصدر

5 - طارق والي : نهج الواحد في عمارة المسجد، مجلة المدن والعواصم الإسلامية لمنظمة المدن والعواصم الإسلامية – الرياض – نوفمبر 1975/ رجب 1416هـ ص 42-30

273 : 1937). وهكذا تصبح الفسيفساء بدل المعلم محل اهتمام وعناية. . . ولكن من أجل الاحتفاظ بها بعيدا عن مهدها[6].

وأما تبرير الهدم فهو يقتصر في توسيع شارع لا غير وبذلك تتغير كل المعطيات في آرائهم، **لا في آراء من تحمّلوا الأمر الواقع** باستياء وغضب فتألموا طويلا. . . **والنسيان متواصل وإلى يومنا هذا**، وإذن بفقدان الذاكرة الجماعية قطيعة للماضي المجيد وما ينجر عن ذلك ويتضح كل الوضوح.

أسباب إعادة البناء :

وهكذا فإن الحفاظ على التراث المعماري بتلمسان يبقى مرهونا بزوال فقدان الذاكرة الجماعية – أي بإزالة المخلفات وإثبات المعلم المحطّم وتشييده من جديد، أي لابد من إعادة بناء التاشفينية وإثبات أناقتها ورمزها وإشعاعها وتلك هي الخلاصة الملموسة والمألوفة بالنسبة لكل ملاحظ نزيه ولكل مفكر واع وبالأخص لكل من يتابع التجارب المختلفة التي تواصلت خلال النصف الثاني للقرن العشرين ببعض البلدان، حيث أعيد بناء تلك المعالم البارعة بعد تدميرها وتحطيمها سواء بعد حروب أو حرائق أو زلازل. والأمثلة كثيرة بهذا الصدد وعلينا أن نكتفي بالإشارة إلى ما يلي :

هناك مجهودات جبارة بذلت بعد الحرب العالمية الثانية بأوربا من أجل إعادة بناء ما دُمرَ وحُطِم من كنائس وقصور وبنايات تاريخية وهي الآن متواجدة وشامخة وكأنها لم تصب بأي إتلاف إطلاقا، وما على الزائر إلا أن يشاهدها في الميدان ويقارنها بما نشر عنها من قبل. وبعد أحداث حرب 1939 – 1945م ولعل أهم مثال لذلك ما يتعلق بالمدينة التاريخية لوارسو ببولونيا، إذ شيدت من جديد، ووفق التصاميم القديمة ولم تترك منها أي بقعة فارغة بل أعيد بناء حتى القصر الإمبراطوري وتم ذلك بفضل التبرعات التي جمعت في الأوساط الأجنبية للمهاجرين البولونيين، وذلك خلال السبعينات، وقد فوجئنا حينما لاحظنا وشاهدنا ذلك في الميدان بأعيُننا.

وأما ما يعود لأسباب أخرى كالحرائق فإن الأمثلة كثيرة جدا ونكتفي بذكر مثالين أثرا في أنفسنا كثيرا ؛ فالأول يتعلق **بالبرلمان** المتواجد في مدينة رين بالغرب الفرنسي، وكان هذا البرلمان آية في الهندسة المعمارية البارعة وقد احترق في سنة 1995م، وما هي إلا مدة قصيرة حتى شرع في تشييده من جديد وها هو الآن برمته وزخرفته وفنه الرائع يتوسط

6 - عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية -مطبعة جاروس - بيروت-، وزارة الأخبار و الفن المعماري بالجزائر، سلسلة "الفن الثقافة"- مطبعة الماتيرا – مادريد –

المدينة وفي موقعه الأصلي... وأما المثل الثاني يتعلق بإعادة بناء **كنيسة فيينا**... أما المثال الأخير والجدير بالاستشهاد فهو يخص إعادة ترميم فسيفساء وألواح معلم ديني بالجنوب الإيطالي (**بازيليك سان فرانسوا داسيز**)، بعد الزلزال الذي أصابه أخيرا. فالأعمال متواصلة به وتوشك على الانتهاء.

بعض التصورات العلمية لإعادة البناء

إن إعادة البناء لا تطرح مشاكل نظرا إلى تواجد المعطيات الرئيسية والمتعلقة بالتصميم والزخرفة ومعلومات أخرى، زيادة على تواجد حديث لورشة فنية أنشئت بمدينة تلمسان خاصة وأنها تختص في صنع فسيفساء التاشفينية نفسها، وقد نالت رواجا كبيرا بحيث أنه يبحث عن هذا الإنتاج الجديد في أوساط راقية مختلفة. وبالإضافة إلى ذلك يلاحظ حاليا ترميم بعض المعالم التاريخية بالمدينة نفسها، وكل هذا إلا وهو بادرة حميدة.

وهكذا فإن إعادة المعالم القديمة لا تطرح أية صعوبة بل هي الشغل الشاغل لكل الأوساط المتشبثة بأصالتها، ومجدها، وثقافتها، فتسخر لها الوسائل والزمن الضروريين من أجل إثبات الحضارة العريقة لتبقى تراثا عالميا خالدا، أي ملكا للجميع وإلى الأبد.

وعليه فبناء التاشفينية عملية في متناولنا، خاصة وأن الغاية المنشودة لا تقتصر إطلاقا في استرجاع تحفة عزيزة علينا فحسب، بل غايتها أكثر من ذلك إذا ما اعتبرنا الوضعية الراهنة، سواء بالنسبة للمدينة المعنية بالأمر بالدرجة الأولى أو الوضعية الثقافية التي فرضت على المجتمع الجزائري في هذه المرحلة المأساوية، وهذا بعدما أصبحنا فاقدين الجزء الأكبر من تراثنا المعماري المجيد، هنا وهناك، وبعدما فقدنا أيضا أهم الشواهد وأهم ما كان يثبت تاريخنا العريق وحتى وحدتنا الوطنية.

فاسترجاع معلم التاشفينية بالمدينة العتيقة يكون الحدث الذي من شأنه أن يغيّر تغييرا جذريا **الذهنيات، والتصرفات في الأوساط الشعبية**، وبالأخص لدى الصغار والأجيال الصاعدة. وهذا إذا ما تم التشييد من جديد بل في الموقع الأنسب، ولذا لابد من حسن تحديده بكل نزاهة وموضوعية إذا ما حرصنا على توظيف هذا المعلم توظيفا محكما.

وهكذا وبعد تفكير طويل ارتأينا أن الموقع التاريخي للتاشفينية غير مناسب إطلاقا وذلك أن الموقع المذكور قد تغيرت وظيفته تماما إذ أنه ضيق المجال وقد شهد خلال القرن الماضي أحداثا تاريخية قد أدّت دورا حاسما في المظاهرات التاريخية خلال ديسمبر 1960 والتي كانت منعرجا في مصير حرب التحرير الوطني، وكل هذا يتطلب صيانة ذلك المجال

وإبقائه في الذاكرة الجماعية، خلافا لما حدث قبيل التسعينيات إذ أقبلت السلطات البلدية آنذاك فأنشأت فيه شبه ربوة من صخور فشوهت المنظر ومع حسن الحظ لم تمر إلا مدة وجيزة وحطمت الربوة وترك المجال للجمهور.

كل هذا يوضح أكثر مما مضى ضرورة الإسراع في تحقيق المشروع قبل فوات الأوان وقبل أن يخصص ذلك المجال التاريخي الهام لأغراض غير التي فرضها التاريخ ونعني بذلك مقر إقامة بني زيان أي المشور، خاصة وقد بنيت في إحدى الزوايا مدرسة للفندقة أخيرا ولو بقيت المساحات الأخرى فارغة لاستَوْلت عليها أوساط غير واعية بقيمة ووظيفة المشور التاريخية والثقافية.

وعليه فلابد أن يشيد من جديد معلم التاشفينية ليخلد مرة أخرى مجد بني زيان **وعاصمتهم** بعد ما حوّلت السلطات العسكرية الفرنسية المشور إلى إحدى محصنات كبرى خلال كل مدة الاحتلال ثم حولته من جديد إلى معقل ومركز للتعذيب طيلة حرب التحرير الوطني.

الخلاصة

هكذا ندرك غاية وأبعاد هذا المشروع الهام، مشروع لا ينحصر في عملية تقنية محضة، أصبحت في متناول الشعوب والمجتمعات الواعية بتاريخها ومجد أجيالها السالفة. بل للمشروع المقترح أبعاد ووظائف أكثر من ذلك إذا ما ربطناه بالظروف التاريخية والحاضرة كما أشرنا لها في العرض ولو باختصار. ويكفينا بهذا الصدد خلاصة ما أكّد عليه أستاذ الهندسة المعمارية بالجزائر J. de Maisonseul[7]، وهو يستخلص ذلك قبيل وفاته (1999م):

« في المستقبل على المهندسين المعماريين الشبان الجزائريين أن يعيدوا تشييد الجزائر وذلك أن التعبير الحقيقي لهذا البلد هو التعبير الهندسي المعماري».

ولهذا التصريح أهمية كبرى ونحن أمام تحديات لا مثيب لها من قبل والمتمثلة في **العولمة** التي تسعى جاهدة للقضاء على الثوابت الجهوية والمحلية وربما حتى الوطنية. وكل ما يتعلق بالثقافات والهوية، والتي تصطدم باقتصاد السوق عاجلا أو آجلا، خاصة وأن هذا الأخير أصبح مفروضا على الجميع ومتبني من الجميع دون وعي إزاء ما ينجر عن ذلك من أخطار على المستوى الثقافي والروحي معا أكثر فأكثر...

7 - أجزاء 1970

ومهما كانت فعالية هذه العولمة في الأوساط المختلفة من **غزو للثقافة**، أليست إذن إعادة بناء مثل هذا المعلم - **التاشفينية، جوهرة دولة بني زيان** - تأكيدا لصلابة عزيمتنا المتينة، وشاهد ثابت لتعلّقنا، واعتزازنا بثقافتنا المجيدة التي أدت الدور الحاسم ضد الاستطانة بالأمس ؟

ألم يمثل ذلك **إنطلاقة جديدة لرفع التحديات الحاضرة والمستقبلية ؟**

أليست العزيمة **أقوى سلاح عند جميع الصامدين وأصحاب البين ؟**

الحواشي

1 - بينما كنت أحرر هذا البحث وإذا بالخطاب يتناول هذا المشكل، خطاب موجه إلى كل المثقفين لإنقاذ الذاكرة الجماعية، لما أصاب شواهد التاريخ والثقافة إذ الورشات تتواصل على حساب بقايا التاريخ والأطلال الغابرة الثمينة وبالذات قصبة العاصمة، المصنفة تراثا عالميا...

2 - إن هذا الخبير بالتراث المعماري الإسلامي غني عن كل تعريف إذ بالرغم من تكوينه في الفنون الجميلة فإنه اهتم فجأة بالهندسة المعمارية الإسلامية بمجرد إقامته بتلمسان وهو في ريعان شبابه، فكرّس كل حياته في هذا المجال، يتجوّل عبر بلدان المغرب العربي والأندلس، وأحيانا باقي العالم الإسلامي خاصة وأنه نشر أبحاثا قيّمة طيلة نصف قرن كامل.

ومما يؤكد ذلك العثور على عبارة « الله أكبر « وهي منقوشة في مدينةLe Puy ، وهي مدينة صغيرة بوسط فرنسا، وقد نُقشَت هذه العبارة بدون شعور، ولا إدراك لمعناها من طرف صانعها نظرا إلى كل من تأثير النقوش العربية وجهل الناقش لها.

3 - ما كان على الغزاة بعد الاستيلاء على تلمسان إلا أن يحافظوا على التاشفينية وأن يقوموا ببناء مركب يجمع مسجد سيدي أبي مدين، وحمام ومدرسة بمرتفعات العباد ؛ وأما بأسفل المدينة فقد شيدوا مسجد سيدي الحلوي سنة 1553م.

4 - قبل وصول المرابطين كانت المدينة متواجدة في مكان بعيد عن موقع المسجد الجامع. وكانت آنذاك تحمل اسم أقادير. وأما المدينة الحديثة، التي شيدت من طرف المرابطين حول المسجد الجامع فقد سميت في البداية تاقرت أي المعسكر، وحينما أصبحت البنايات تجمع المجموعتين فقد أصبحت تسمى تلمسان.

5 – إنه لمنظر مؤلم تلك القطع من الأحجار المنقوشة وغيرها وهي معلقة بحائط المتحف أو المسجد العتيق سابقا، وهي كلها مهددة بالزوال، لأنها معرضة مباشرة إلى المطر والحرارة المرتفعة أو القاسية وليس هناك من يتحرك ولا يستطيع القيام بمبادرة منذ عقود وإن كان هناك مشروع، لكنه بقي حبرا على وروق.

6 – لقد قمت شخصيا بزيارة ذلك المتحف بباريس، وقد سألت المشرف عليه، وتأسف كثيرا لما قامت به السلطات الاستعمارية من نهب...

7 – فضل كبير له في توعية Le Corbusier أي المهندس المعماري العالمي المشهور إزاء **المكانة العالمية لقصبة العاصمة** وما تمتاز به من أصالة وانسجام بارع للغاية. (Ouaret F.2000)

- *Benet F. M The ideology of Islamic Urbanisation, International Journal of Comprative Sociology 1963, 4/2 – p. 211 – 226*
- *Creswell K A C : The origin of the cruciform plan of Careen madrassas, in BIFAO (Bulletin de l'institut français d'Archéologie orientale), Cairo 1922 p. 66*
- *Creswell K A : Early Muslim Architecture, Art Books New York 1979, 2nd ed. 2. v.*
- *Hillenbrand : Madrassa, Encyclopédie de l'Islam, Brill. Leinden 1986 V 1130 – 1144*
- *Hutt A : Islamic Architecture – North Africa, London 1977*
- *Makdisi : The rise of Colleges. Institutions of learning in Islam and the west, Edimbourg 1981*
- *Marcais G : Manuel d'art musulman, l'architecture. Ed. Picard – Paris 1927, T. IL*
- *Marcais G : Remarques sur les mederssas funéraires à propos de la Tachefinia (BIFAO), le Caire 1937 – P. 259 – 278*
- *Marcais G : A propos de la grande mosquée de Tlemcen, (BIFAO), Alger 1949 – 50 T. VII, P. 265 – 277*
- *Marcais G : Tlemcen ville d'art, Paris – Imp. Leroux 1950 – 152 p.*
- *Massignon L : Les Mederssas de Bagdad, BIFAO, Le Caire 1909 VII – P. 77 – 86*

- *Ouaret F : Un partisan des causes nobles : J. de Maisonseul, El Watan – Alger, 23 Août 2000, P. 12*

- *Saris Dj : Le Mechoir : un monument, une histoire, un symbole. Revue Habitat – Tradition et Modernité. Alger 1994 – p. 169 – 175*

- *Sari Dj : Tlemcen : Source pérenne de citadinité. Reflets. Ed. Casbah – Alger 1998 – p. 39 -52*

- *Terasse H : Mederssas du Maroc – Paris 1927*